لكل عمل أدبي مكان و زمان ينشأ فيه ، و يتغذى مما أنتجته طبيعة ذلك المكان ، فينمـــو و يترعرع ، ثم يولد كامل الملامح و الصفات . و لما كان لكل ولادة مخاض ، كان لكل عمل أدبي و هو يتولد تحت ذبذبات خيال الشاعر أو الأديب مخاض يفعّله الصراع مع الذات و الواقع .

و نحاول نحن من خلال هذا الفصل التمهيدي أن نضع الموضوع الذي هو بصدد دراستنا في إطاره السياسي و الاجتماعي و الثقافي ، محاولين إلى جانب ذلك كله تبين ملامح صورة المرأة في الشعر الأندلسي عامة ، و في شعر الطبيعة منه خاصة ، لنكون على وعي بحقيقة الواقـــع الأدبي في هذا المجال .

و بداية نحاول أن نلقي نظرة خاطفة على طبيعة البيئة الأندلسية و خصائصها ، بيد أنها تمثل الحيز المكاني الذي تكونت في رحمه الحياة الأندلسية بكل تقلباتها .

طبيـــعة البيـــئة الأندلسيـــة و خصائصـــها :

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوربية ، تفـــصلها مـــن الشمال ، عن جنوب فرنسا ، جبال البُرْت أو البُرْتات ـــ حيث تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة ، و يفصلها من الجنوب ـــ حدودا للقارة الأوربية ـــ عن إفريقية مضيقُ جبل طارق . تقع سواحلها الشمالية و الغربية على المحيط الأطلسي ، و تطل شواطؤها الشرقية و الجنوبية الشرقية على البحر المتوسط [1] . " و قد شملت بعد الفتح الإسلامي شبه الجزيرة الأيبيريّة (أسبانيا و البرتغال حاليا) ما عدا ركنها الشمالي الغربي المسمى جلّيقية . . . . و يُضاف إلى ذلك تلك المناطق الواقعـــة وراء جبال البرنيه ، التي تشمل عددا من المدن " [2] .

وهب الله الأندلسَ طبيعة ساحرة ؛ من أرض خصبة و مياه عذبة و وديان جارفة ، إلى رياض ساحرة و أشجار يانعة و ظلال وارفة ، إلى غابات ملتفة خضراء و أطيار تغرد علـــى الأفنـــان . أرض اجتمع فيها كل أخضر و جميل ، فشغفت بها القلوب ، و هامت بها النفوس ، حتى صارت

---

(1) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطـــة) . ط 2 . بـــيروت : دار القلم، 1981 . ص 35 ـــ 36 .

(2) ـــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ط 1 . ليبيا : جامعة سبها ، 2001 . ص 19 .

جنةَ الشعراء و الأدباء .

و كما تغنى بها الشعراء و الأدباء فقد تحدث عنها المؤرخون و الكتاب ، و ربما أفردوا لهـــا فصولا في كتاباتهم . و ينقل المقري في (نفح الطيب) عن الوزير لسان الدين بن الخطيب ما نصه : "خص الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع و غَدَق السُّقْيا ، و لذاذة الأقوات ، و فَرَاهة الحيوان ، و درور الفواكه ، و كثرة المياه ، و تبحر العمران . . . ، و صحة الهواء . . . ، بما حُرِمَه الكثيرُ من الأقطار مما سواها" [1] .

و ينقل في كتابه عن أبي عبيد البكري ما نصه : " الأندلس شامية في طيبها و هوائها ، يمانية في اعتدالها و استوائها ، هندية في عِطْرِها و ذكائها ، أهوازية في عظم جِبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عَدَنية في منافع سواحلها . . . " [2]

هكذا تميزت الأندلس بطبيعتها ، فتفردت بمكانتها في عيون الشعراء و الكتاب ، و قد كان لذلك ـــ دون شك ـــ الأثرُ الكبير في احتلالها أسمى المراتب على جميع الأصعدة .

---

(1) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1988 . ص 126 .

(2) ـــ المرجع نفسه . ص 126 .

واقــع المجتــمع الأندلــسي :

1 ــ الحــياة الســياسيــة :

فتح العرب الأندلس سنة 92 هــ ، بقيادة طارق بن زياد ، بإذن أميره موسى بن نُصَير [1] . " و قد تمّت السيطرة خلال أربع سنوات على شبه الجزيرة الأيبيرية ، ما عدا المنطقة الجبلية الوعرة التي تُعرف ببلاد الصخر الشمالي " [2] .

و يمكننا تقسيم الحياة السياسية في الأندلس بعد الفتح إلى العصور الآتية :

عصر الولاة : (95 ــ 138 هــ) [3]

بعودة القائدين موسى و طارق (إلى دمشق) [4] يبدأ في الأندلس ما يعرف بعصر الولاة الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل (الأول) بن معاوية بن هشام ، و ما ترتب بعــده . و في هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق .

لقد تولى حكم الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن الداخل حوالي عشرين أمــيرا في فترة قاربت نصف قرن من الزمن و كان أولهم عبد العزيز بن موسى بــن نــصير و آخــرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري [5] .

كان أول الولاة بعد الفتح الإسلامي للأندلس عبــد العزيــز بــن موســى بــن نــصير (95 ــ 97 هــ) الذي أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل توجهه إلى المشرق و جعل إشــبيلية

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 233 .

(2) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 20 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 20 .

(4) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . القاهرة : دار قبــاء ، 2001 . ص 53 ــ 55 .

(5) ــ المرجع نفسه . ص 61 .

مقرا لولايته ، (التي انتقلت بعد ذلك إلى قرطبة) [1] ، و أهم الأعمال التي قام بها هو تثبيت أقـــدام المسلمين في الأندلس ، حيث يُنسب إليه فتح الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية [2] .

و أكثر ما يميز عصر الولاة النشاط الواضح لعمليات الجهاد وراء ألبَرْت ، رغم ما أصـــاب ذلك من توقف لظروف خارجية و داخلية [3] . و قد " بلغت قوة المد الإســـلامي وراء البُـــرْت خلال عهد الولاة مبلغا عاليا ، و حازت سبقا كبيرا ، كان للمسلمين فيه نشاط واضح ، و قدم عدد من الولاة كل التضحيات في هذا السبيل ، و استشهد بعضهم في ميدان الجهاد في سبيل الله من أجل نشر العقيدة الإسلامية و حبا في خدمتها " [4] .

كما كان عهد الولاة عهد تأسيس ، تمت فيه إنجازات كثيرة من الفتوح المتعدد الألـــوان ، الشامل لكل ميدان ، مثّل بداية الوجود الإسلامي في تلك البقعة ، و ما صـــاحب ذلـــك مـــن مجهودات الإنعاش فيها . و كانت أيامه أيام غرس لم يحن بعد موسم حصاد كبير مـــن إنتاجـــه الفكري و العمراني ، الذي وضعت أسسه و تهيأ مجاله [5] .

عصر الإمارة : (138 ــ 316 هـــ) [6]

و أصل هذه الدولة أن بني أمية لما غلبهم بنو العباس على الخلافة ، و تتبعوهم بالقتل ، كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، و كان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ، و يرون

---

(1) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 136 .

(2) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . ص 61 .

(3) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 206 ــ 207 .

(4) ــ المرجع نفسه . ص 185 .

(5) ــ المرجع نفسه . ص 212 .

(6) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 21 .

فيه علامات لذلك . و قد خلص إلى المغرب [1] ، و تولى حكم الأندلس (138 ــ 172 هـ)، و سمي أميرا ، و به بدأ عهد الإمارة . و أصبح الأندلس بلدا إسلاميا مستقلا عن الخلافة الإسلامية بالمشرق ، وبدأت فيه دويلات إسبانيا الشمالية (النصرانية) تظهر تدريجيا ، و كان لها أثر في عدد من أحداث الأندلس [2] .

عصر الخلافة : (316 ــ 422 هـ) [3]

يبدأ هذا العصر بتولي عبد الرحمن الناصر ــ حفيد الداخل ــ الحكم بالأندلس (300 ــ 350 هـ) ، و كان شابا . (و تأكيدا لقوة الأندلس ــ مع أسباب أخرى ــ أعلن هذا الأخير الخلافة الأندلسية فأنهى بذلك عهد الإمارة) [4] ، و وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، و استنزل أهل العصيان ، و استقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نَيّف و عشرين سنة من أيامه ، و دامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك الناحية [5] .

كان الناصر أميرا حازما، و ذكيا و عادلا ، و عاملا شجاعا، محبا للإصلاح و حريصا عليه . قاد الجيوش بنفسه ، فأنزل العصاة من حصونهم ، لشجاعته و سياسته الحكيمة ، بالسيف أحيانا ، و بالسياسة الرشيدة أحيانا أخرى ، و استطاع أن يعيد للأندلس وحدتها و هيبتها و مكانتها بين الدول [6] .

---

(1) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 327 ــ 328 .

(2) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 278 .

(3) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 22 .

(4) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 298 .

(5) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 353 .

(6) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . ص 151 ــ 152 .

و سار الحكم المستنصر (350 ــ 366 هـــ) على نهج والده في الحكم بتوليه الخلافة بعده، " فجرى على رسمه ، و لم يفقد من ترتيبه إلا شخصه " [1] ، إذ وجد الأندلس مستقرة على أسس ثابتة موحدة ، حدودها آمنة ، تتمتع بالتقدم و الازدهار و العمران الباهر ، فاستمر الحكم راعيـــا لهذا الموكب [2] .

و ولي بعده ابنه هشام صغيرا سنّه تسع سنين . و كان الحكم قد استوزر له محمدَ بـــن أبي عامر " الملقب بالمنصور " [3] و نقله من خطة القضاء إلى وزارته ، و فوض إليه أمـــوره [4] . و يذكر المقري عن ابن خلدون إنه لما توفي الحكم و بويع هشام و لقب المؤيد بعد أن قتل المغيرة أخو الحكم المرشح لأمره ، سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ، فغلب علـــى المؤيد ، و منع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلمون و ينصرفون [5] ، لـــذلك "سميت هذه الفترة فترة الحجابة" [6] .

و كان عهد المنصور من ألمع العصور سياسيا و حضاريا و عـــسكريا في تـــاريخ إســـبانيا الإسلامية ، و كان له الفضل الكبير على استمرار دولة المسلمين في الأندلس . يقول محمد عبد الله عنان في كتابه (دولة الإسلام في الأندلس) : " و يمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصـــر ألمـــع صفحة في تاريخ إسبانيا المسلمة ، من النواحي السياسية و الحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقـــل عنه لمعانا و تألقا ، بل ربما امتاز على عهد الناصر بما أحرزته إسبانيا المسلمة خلاله من تفوق عظيم

---

(1) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 382 .

(2) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . ص 180 .

(3) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 22 .

(4) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 396 .

(5) ــ المرجع نفسه . ص 396 .

(6) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 22 .

في السلطان و القوى العسكرية في شبه الجزيرة الإسبانية " [1] .

و كان لوفاة ابن أبي عامر المنصور (392 هـ) وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، و أدرك العقلاء أن رزءا فادحا نزل بالإسلام و بالأندلس [2] .

و استمرت الأندلس بعد وفاة محمد بن أبي عامر المنصور تحت حكم ابنه عبد الملك المظفّر أبو مروان (392 ـ 399 هـ) ، الذي جرى على سَنَن أبيه في السياسة و الغزو ، و عاشت الأندلس أيامه أعيادا دامت مدة سبع سنين [3] . و كانت وفاته فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي و أشدها غموضا و اضطرابا ، و كانت نذيرا بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس [4] .

ثم تولى الأمر بعده أخوه عبد الرحمن . و ينقل المقري عن ابن خلدون ما نصه : " ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، و تلقب بالناصر لدين الله ، و قيل بالمأمون ، و جرى على سَنَن أبيه و أخيه في الحجر على الخليفة هشام ، و الاستبداد عليه ، و الاستقلال بالملك دونه ، ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده ، فأجابه ، و أحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى و أهل الحل و العقد ، فكان يوما مشهودا " [5] .

و مما يذكر عن عبد الرحمن انحرافُه و أخلاقُه السيئة ؛ فقد " كان فاجرا كثير الاستهتار و المجون ، يقضي معظم وقته في الشراب و اللهو " [6] .

---

(1) ـ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية). ط 4 . القاهرة: مكتبة الخانجي ، 1997 . ص 568 .

(2) ـ المرجع نفسه . ص 607 .

(3) ـ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 423 .

(4) ـ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 622 .

(5) ـ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 424 .

(6) ـ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 623 .

ثم جاء بعده المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار ، و هو أول خلفاء الفتنة ، و هدمت في أيامه الزهراء و الزاهرة، و عاد السرير إلى قرطبة [1] . و تربع الملقب بالمهدي على كرسي الخلافة، مكان الخليفة هشام المؤيد ، سنة 399 هـ ، و انقضى عهد السلطة الثنائية ـ سلطة الخليفة الشرعي الإسمية ، و سلطة حاجبه و المتغلب عليه الفعلية ـ ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . و لكن الظروف التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذي أودى بين عشية و ضحاها بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت و أن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، و لا تحدوها أية غاية مثلى [2] .

ثم انتقل الحكم إلى دولة بني حمود العلويين ، و أولهم الناصر علي بن حمود العلوي الحسني الإدريسي (407 ـ 408 هـ)، و بعده أخوه المأمون القاسم بن حمود (408 ـ 413 هـ)، ثم المعتلي يحي بن الناصر علي بن حمود (413 هـ) [3] .

و قطع أهل قرطبة دعوة الحموديين بعد سبع سنين من ملكهم ، و اتفقوا على رد الأمر لبني أمية ، و اختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ، و بايعوه في رمضان سنة 414 هـ ، و لقبوه المستظهر و قاموا بأمره [4] . و لم تعمر عهدته طويلا حتى " ثار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فاتّبعه الغَوْغاء ، و فتك بالمستظهر ، و تلقب بالمستكفي ، و استقل بأمر قرطبة (414 ـ 416 هـ) ، و هو والد الأديبة الشهيرة ولادة ، و كان أبوه عبد الرحمن قتله المنصور بن أبي عامر لسعيه في الخلاف " [5] . و كان المستكفي عاجزا سيء الرأي، عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا إلى البطالة،

---

(1) ـ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 300 .

(2) ـ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 642.

(3) ـ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 300 ـ 301 .

(4) ـ المرجع نفسه . ص 435 ـ 436 .

(5) ـ المرجع نفسه . ص 437 .

شغوفا بالمجون و الشراب و اللهو [1] .

ثم بعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحي بن علي بن حمود سنة 416 هـ ، و خلع أهلُ قرطبة المستكفي . ثم بدا لأهل قرطبة فخلعوا المعتلي بن حمود سنة 417 هـ و بايعوا هشام بن محمد و تلقب المعتدَّ بالله . و اشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف ، و نزل المعتدّ بالله دار الخلافة بقرطبة ، ثم خلعه الجند سنة 422 هـ [2] ، " و هو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس ، و حين خُلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية " [3] .

عصر ملوك الطوائف : (422 ــ 484 هـ) [4]

انقضت الخلافة المروانية بظهور ملوك الطوائف ، الذين عجّلوا بانهيار دولة الإسلام في الأندلس. "و انتزى الأمراء و الرؤساء من البربر و العرب و الموالي بالجهات، و اقتسموا خطتها، و تغلب بعض على بعض، و استقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم و عظم شأنهم، و لاذوا بالجِزَى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، و أقاموا على ذلك برهة من الزمان" [5] .

و من أشهر ملوك الطوائف بنو عباد ملوك إشبيلية و غرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عَبّاد [6] . و منهم بنو جَهْوَر ، و كانوا بقرطبة [7] . " و من أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طُلَيْطلة من الثغر الجوفي " [8] . " و من ملوك الطوائف بالأندلس بنو هُود ملوكُ سَرَقُسْطَة و

---

(1) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 667 .

(2) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 437 ــ 438 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 301 .

(4) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 24 .

(5) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 438 .

(6) ــ المرجع نفسه . ص 438 .

(7) ــ المرجع نفسه . ص 438 ــ 439 .

(8) ــ المرجع نفسه . ص 438 ــ 440 .

ما إليها ، و من أشهرهم المقتدر بالله و ابنه يوسف المؤتمن " [1] . و من مشاهير ملوك الطوائف بنو الأفطس أصحاب بَطَلْيوس و ما إليها ، و المتوكل منهم ، قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين[2].

و هكذا انحدرت إسبانيا المسلمة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري إلى معترك مروع من التمزق و الفوضى ، و استحالت الأندلس ــ بعد أن كانت كتلة موحدة ــ إلى أشلاء ممزقة ، و رقاع متناثرة ، و ولايات و مدن متباعدة متخاصمة [3] . قال أبو الحسن بن بسام : و لما أدارت تلك الفتنةُ رحاها ، على حضرة قرطبة و ما والاها ــ إذ كانت منتهى الغاية ، و مركز الراية ــ فقلصت أذيالها ، و انتسفت جبالها ، و اشتفّت الماء من عودها ، و ألوت بمعظم طارِفها و تليدها [4] .

و اشتد ساعد إسبانيا النصرانية ، و استطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ــ أول قاعدة إسلامية كبيرة ــ (478 هـ) ؛ و عندئذ تطورت الحوادث بسرعة و اتجهت الأندلس الجريح ، في توجسها و انزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . و كان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، و كان أن أنقذت دولة الإسلام في الأندلس [5] .

عصر المرابطين : (484 ــ 520 هـ) [6]

لما اشتدت الحال بملوك الطوائف و ضاقت بهم الأرض توجهوا إلى إخوانهم المسلمين بالمغرب،

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 438 ــ 441 .

(2) ــ المرجع نفسه . ص 438 ــ 442 .

(3) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 676 .

(4) ــ ابن بسام . الذخيرة . ق 3 . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، 1997 . ص 9 .

(5) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 677 .

(6) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 417 .

" فقطع إليهم البحرَ ملكُ العُدْوة و صاحبُ مرّاكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتـــوني ، فخلعهم و أخلى منهم الأرض " [1] ، و حقق النصر العظيم بموقعة الزلاقة سنة 479 هـــ [2] ، و ضم الأندلس تحت جناح دولته [3] .

و لما انقرض بالأندلس مُلك ملوك الطوائف ـــ بني عباد و بني ذي النون . . . ـــ انتظمت في سلك اللمتونيين ، و كانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التاريخ [4] .

و بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 هـــ قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين علي بـــن يوسف، و سلك سنن أبيه ، و إن قصر عنه في بعض الأمور ، و دفع العدو عن الأندلس مدة ، إلى أن قيض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تُومَرْت الملقب بالمهدي الذي أسس دولة الموحدين [5] .

مضت فترة من الزمن في منتصف القرن الثاني عشر تبلورت خلالها بعض الحركات و اتخذت نموذجا جديدا من ممالك الطوائف ، ثم خضعت الأندلس لسلطان أسرة بـــني عبـــد المـــؤمن في مراكش[6] .

عصر الموحدين : (540 ـــ 620 هـــ) [7]

تأسست هذه الدولة على يد محمد بن تُومَرْت ، الذي ثار على علي بن يوسف اللمتـــوني ،

---

(1) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 438 .

(2) ـــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 25 .

(3) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 419 .

(4) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1988 . ص377 .

(5) ـــ المرجع نفسه . ص 377 .

(6) ـــ ج س كولان . الأندلس . ترجمة : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية . ط 1 . بيروت : دار الكتـــاب اللبنـــاني، 1980 . ص 136 .

(7) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 453 .

"فلم يزل يسعى في هدم بنيان لمتونة إلى أن مات و لم يملك حضرة سلطنتهم مراكش ، و لكنه ملك كثيرا من البلاد ، فاستخلف عبد المؤمن بن علي ، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو معروف ، ثم جاز إلى الأندلس و ملك كثيرا منها" [1] .

و أظهر يعقوب المنصور أُبهةَ الموحدين ، و رفع راية الجهاد ، و نصب ميزان العدل ، و بسط الأحكام الشرعية ، و أظهر الدين و أمر بالمعروف و نهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب و البعيد [2] .

و لما اضمحل شأن الموحدين ، و ضعف أمرهم بالمغرب و الأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، و اجتاحت الثورة معظم القواعد و الثغور الأندلسية ، بدأت قواعد الأندلس تسقط تباعا في يد النصارى [3] ؛ فكان استيلاء العدو على مدينة قرطبة سنة 636 هـ [4] ، و أخذ العدو جزيرة شقر صلحا سنة 639 هـ في آخرها [5] ، و استولى جاييم الأول ـــ صاحب أرغونا ـــ على مرسيا سنة 640 هـ [6]، و كان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس ـــ شاطبة و غيرها ـــ و إجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها سنة 645 هـ [7] ، و حصر العدو إشبيلية سنة 645 هـ ، و في السنة بعدها ملكها الطاغية ـــ صاحب قشتالة ـــ

---

(1) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 377 .

(2) ـــ المرجع نفسه . ص 380 .

(3) ـــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس). ط 4 . القاهرة: مكتبة الخانجي ، 1997 . ص 439 ـــ 440 .

(4) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 472 .

(5) ـــ المرجع نفسه . ص 472 .

(6) ـــ ليفي بروفنسال . حضارة العرب في الأندلس . ترجمة : ذوقان قرقوط . بيروت : دار مكتبة الحياة . ص131.

(7) ـــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 472 .

"فرديناند الثالث" [1] صلحا [2] . ثم آل الأمر إلى مملكة بني الأحمر التي كانت بدايتُها نهايـــةَ هـــذه المرحلة .

عصر بني الأحمر : (635 ــ 897 هـــ) [3]

نشأت هذه المملكة على يد رجل ذي عبقرية هادئة ، و لكن واسعة الأفق ، هو محمد بـــن الأحمر ، زعيم بني نصر [4] . و أصل هذه الدولة إنه " لما أُخذت قواعد الأندلس مثـــل قرطبـــة و إشبيلية و طليطلة و مُرسية و غيرها ، انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة و المرية و مالقة و نحوها ، و ضاق الملك بعد اتساعه ، و صار تنين العدو يلتقم كل وقت بلدا أو حصنا ، و يهصر مـــن دوح تلك البلاد غصنا ، و ملك هذا الترر اليسير الباقي من الجزيرة ملوكُ بني الأحمر ، فلم يزالوا مـــع العدو في تعب و ممارسة . . . ، و ربما أثخنوا في الكفار كما عُلم في أخبارهم ، و انتصروا بملوك فاس بني مرين في بعض الأحايين " [5] .

و كان أن استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب و حضرة ملك فاس ، فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم، فاجتاز إلى الأندلس و هزم الإفرنج أشد هزيمة، ثم تتابعت غزواته بالأندلس و جَوَازه للجهاد .

و لم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال و الرجال ، و تركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة ، و مواقف مشكورة ، و كان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة [6] . " ثم إن بني الأحمر ــ ملوك الأندلس الباقية بعد

---

(1) ــ ليفي بروفنسال . حضارة العرب في الأندلس . ترجمة : ذوقان قرقوط . ص 131 .

(2) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 472 .

(3) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 27 .

(4) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 441 .

(5) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 4 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 510 .

(6) ــ المرجع نفسه . ص 385 .

استيلاء الكفار على الجل ــ كانوا في جهاد و جِلاد في غالب أوقاتهم ، و لم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتَهم الهرمُ الذي يلحق الدول " [1] . و كان آخر ملوك بني نصر ، الذي أُخذت على يده غرناطة ، هو أبا عبد الله محمدا الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، و محيت رسومها [2] .

يبدو أن الصراعات السياسية و الفتن و الثورات المتوالية التي شهدتها دولة الإسلام في الأندلس بين الطوائف المختلفة التي تغذت عبر الزمن من ثدي الفتن و ترسبات العقلية الانتهازية و المصالح الشخصية ، و التفكك الاجتماعي و الأخلاقي الذي أصاب الأندلس في بعض الفترات من تاريخها ، كانت وراء انهيار القواعد الأساسية للدولة ، و بالتالي زوال دولة الإسلام من الأندلس .

2 ــ الحياة الاجتماعية :

المجتمع الأندلسي ثمرة من ثمرات الفتح الإسلامي ، و ما يميّزه كونه وُلد جديدا ، و هو في طور التكوين ؛ لأنه مزيج من أجناس مختلفة في أصولها و أديانها و لغاتها و عاداتها . . . ، و حتى في تاريخها . و ما يهمنا أكثر هو معرفة التركيبة البشرية لهذا المجتمع و مدى تأثرها بأصولها العرقية و الدينية ، و لغتِها في التعامل و الحوار ، و مكانة المرأة في مجتمع نحاول أن ندرك بعد ذلك حالته النفسية و الأخلاقية ، و ظروفه الاقتصادية و المعيشية .

لقد كان المجتمع الأندلسي يتكون من عنصرين رئيسين هما الفاتحون و سكان البلاد ، و قد تألف كل من هذين العنصرين من شتات متكون من أصول مختلفة و أديان متباينة ؛ فكان الفاتحون يتألفون من عرب دينهم الإسلام ، و بربر اختلف في أصلهم و اعتنقوا الإسلام على يد العرب . أما أهل البلاد و سكانها فكانوا يتكونون من موّلدين ، و هم سكان الأندلس الأصليون ، (و الذين دخلوا الإسلام منهم يمثلون أكثرية المسلمين) [3] ، و من متغربين ، و هم أقوام جاؤوا إلى الأندلس

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 511 .

(2) ــ المرجع نفسه . ص 528 .

(3) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 283 .

في فترات زمنية متباينة ، فمنهم من اندمج مع سكان الأندلس الأصليين و أصبح منهم ، و منهم من حافظ على أصله و تراثه [1] . و من هؤلاء الأقليةُ ــ من غير المسلمين ــ التي تتكون من اليهود و النصارى بصورة كلية أو غالبة ، و أطلق عليهم : المعاهدون أو أهل الذمة . و بعضهم الذين قبلوا اللغة العربية لغة لهم و تبنَّوا بعض العادات الإسلامية عادة سُمُّوا : المُسْتَعربون [2] .

و من سكان الأندلس أيضا الصقالبةُ ، و هم الذين كان يؤتى بهم من مختلف البلاد الإفرنجية أطفالا ، فتتعهد الدولة برعايتهم ، و يُنشّأون نشأة إسلامية [3] .

و هناك عنصر آخر لم يكن إلا نسبة ضئيلة ــ إلى حد ما ــ من السكان ، و هذا العنصر يضم العبيد الذين جلبهم النخاسون من السودان إلى إسبانيا [4] .

و في نهاية القرن العاشر الميلادي دخلت الأندلسَ جموعٌ أخرى من الجند من جراء تجنيد جماعات من البربر على نطاق واسع في المغرب الأوسط و الشرقي ، و من ثم دخل إلى الأندلس جماعة من أهالي شمالي إفريقية عجلوا بتقويض بناء الخلافة و تجمعوا جماعات سلالية كونت في القرن التالي طائفة البربر التي تقابل طائفة الأندلسيين [5] .

كل هذه الطوائف أثمرت مجتمعا جديدا اسمه المجتمع الأندلسي بكل ما تحمله كلمة مجتمع من معنى ، ذاك الذي يجعلنا نقول إن " التزاوج قد وقع على نطاق واسع بين العناصر المختلفة في الأندلس و كانت البوادر الأولى لهذا التقارب قد حدثت في المغرب و بين الوافدين إليه من العرب

---

(1) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة). ص 103 .

(2) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 284 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 284 .

(4) ــ ج س كولان . الأندلس . ترجمة : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية . ص 91 .

(5) ــ المرجع نفسه . ص 89 ــ 90 .

الفاتحين " [1] .

و كان العنصر العربي ـــ حامل الإسلام ـــ أقلية ، دخلت أغلبيته البلاد إما في عهد الفتح أو في خلال السنوات التالية ، و ازدادت قوة فيما بعد بعناصر طارئة من الجند الشاميين و بالمهاجرين الذين أقبلوا زرافات من آسيا في عهد استعادة المروانيين للخلافة في الأندلس [2] .

و لما كانت العصبية قد ضربت بنسجها على عقول العرب و عششت في نفوسهم منذ زمن بعيد ، فقد استيقضت اليوم من جديد، ليعود العرب في الأندلس إلى منازعاتهم كقيسيين و يمانيين. و كان البربر أكثر منهم ، و منهم عصبيات البتر و البرانس ، و لم يتنازعوا كما كان يفعل العرب بل كانوا ينازعون العرب مجتمعين . و لم يكن موقف المولّدين المسلمين من الدين الجديد متـــأثرا بأجناسهم ، و إن كان قد تأثر ـــ إلى حد ما ـــ بطبقاتهم الاجتماعية ، فسكان الريف تمـــسكوا بالإسلام إذ حسّن من أحوالهم على العكس من سكان المدن الذين تقلّصت امتيـــازاتهم بـــدخول الإسلام [3] . و سرعان ما انصهر كثير من المولدين في بوتقة المجتمع الأندلسي ، بل هم قد نـــسوا أصلهم الإسباني . و أدى التعايش في ظل الإسلام بين العناصر المختلفة الأصول من الـــسكان إلى اندماجهم بالتدريج .

و انقسم سكان الأندلس المسلمون إلى عدد معين من الطبقات الاجتماعية : طبقة خاصة ، و طبقة عامة ؛ و تضم الأولى الأسر النبيلة الكبرى التي كثيرا ما كانت ألقابها تُمنح لهـــا بالوراثـــة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تتألف من التجار و ملاّك الأراضي الصغار [4] .

و قد اتبعت السلطة الأندلسية سياسة رشيدة مع الرعية ، قائمة على أصول إسلامية عموما ؛

---

(1) ـــ محمد سعيد الدغلي . الحياة الاجتماعية في الأندلس و أثرهـــا في الأدب العـــربي و في الأدب الأندلـــسي . ط 1 . منشورات دار أسامة ، 1984 . ص 16 .

(2) ـــ ج س كولان . الأندلس . ترجمة : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية . ص 90 .

(3) ـــ محمد سعيد الدغلي . الحياة الاجتماعية في الأندلس و أثرها في الأدب العربي و في الأدب الأندلسي . ص 15 ـــــ 16.

(4) ـــ ج س كولان . الأندلس . ترجمة : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية . ص 93 ـــ 94 .

من سياسة العدل و الرفق بالرعية واتباع الإنصاف مع غير المسلمين . و كان الحكام يخضعون لهذا التشريع . و مع ذلك كانت هناك بعض الأحداث و قامت بعض المخالفات المحليـــة ، أثـــرت في برامج الإصلاح و ربما في نمو دول الشمال . هذه و تلك كان لها أثر في إيقاف و تعويق أعمـــال الجهاد فيما وراء البُرْت [1] .

و لما تأسست الدولة الإسلامية في الأندلس كان أهلها على مذهب الإمام الأوزاعي ، و ظهر عدة علماء في الأندلس على نهج الأوزاعي في الفقه ، ثم أخذ أهلها يتفقهون على مذهب الإمـــام أبي عبد الله مالك بن أنس [2] .

و كما اتبعت السلطة الأندلسية تلك السياسة القائمة على العدل و الإنـــصاف مـــع غـــير المسلمين ، فإن المجتمع الأندلسي نفسه لم يعرف التعصب الديني من جانب المسلمين ؛ فقد تركوا لأهل الكتاب من نصارى و يهود حرية العقيدة و التعبد منذ الفتح الإسلامي ، بل إن كثيرا مـــن النصارى و اليهود احتلوا مراكزا سامية في الحكم ، و مراتب ممتازة في الحياة العامة ، فكان منهم الوزراء و الشعراء و الأطباء و الموسيقيون [3] .

و لما انصهرت جميع الطوائف و الأجناس في بوتقة واحدة اسمها المجتمع الأندلسي ، كان من البديهي أن تنصهر جميع الألسن في لغة واحدة فتكون لهم رسميةً ، و لما كانت اللغة العربية لغـــةَ الإسلام و الفاتحين كانت لغةَ الثقافة و التفاهم عند المسلمين ، بصورة رئيسة [4] . و قـــد أقبـــل المسيحيون و اليهود بحماس بالغ على اكتساب اللغة العربية فأحسنوها و فضلوها على لغتـــهم في مراسلاتهم و في مؤلفاتهم و حتى في قصائدهم الشعرية .

لقد كانت اللغة العربية ـــ بالفعل ـــ لغة الفاتح ، لغة المنتصر على الأهالي ، و بالتالي لغـــة

---

(1) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 287 ـــ 288 .

(2) ـــ المرجع نفسه . ص 280 ـــ 281 .

(3) ـــ د عيسى خليل محسن . أمراء الشعر الأندلسي . ط 1 . عمّان : دار جرير ، 2007 . ص 49 .

(4) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 286 .

الدواوين و الإدارات الرسمية ، فكان من المعمول به ـــ آنذاك ـــ وجوبا أن يكـــون الـــوزراء و الأولياء و الكتاب من الأدباء و الشعراء و العلماء المطلعين بالدرجة الأولى على أسرار البلاغـــة و البيان ، و المبرهنين على مقدرتهم في الإنشاء و الكتابة بأسلوب سليم بديع . و قد أدرك الناطقون باللغة العربية أنه لا سبيل إلى التوصل إلى المناصب المرموقة إلا بهذه الوسيلة الأساسية المشروطة ، و الدليل على ذلك أن بعض المسيحيين و بعض اليهود قد شغلوا مناصب إدارية سامية ، و ذلك منذ عهد الخلافة الأموية . و بالإضافة إلى هذه الأسباب ، فاللغة العربية ـــ آنذاك ـــ كانـــت أكثـــر اللغات تطورا ، تتميز عن غيرها بما كانت توفره من وسائل أسلوبية و من مفردات و عبـــارات و معان ، يجد فيها ضالته الأديب و المفكر و العالم للتعبير عما يريد تبليغه في مجال اختـــصاصه . و لنضف ـــ في النهاية ـــ أن اللغة العربية كانت تستميلهم مثيرة إعجابهم بها لرونقها و مرونتـــها و سلامة أسلوبها [1] .

و لم تكن المرأة الأندلسية مهضومة الحقوق في ظل هذا المجتمع ، بل كانت واسعة النفـــوذ ، تتمتع بقسط كبير من الحرية ، حتى أنها تولت مناصبا سياسية في الدولة [2] . و من صور تحررهـــا أيضا ، اتخاذ بعض الشاعرات الأندلسيات صالونا أدبيا لهنّ ، مثل ولادة بنت المستكفي ، و السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر ، و حفصة الركونية [3] .

و في ميدان البناء و التشييد ذُكر ما قامت به جهود الرجال في عصر الولاة مـــن إنجـــازات عمرانية ، منه إنشاء المساجد في المناطق المختلفة ، و كذلك المدارس في المساجد أو الربط أو غيرها من أماكن التعليم [4] .

---

(1) ـــ أ حمدان حجاجي . محاضرات في الشعر الأندلسي (في عصر الطوائف) . الجزائر : منشورات زرياب ، 2001 . ص 16 ـــ 17 .

(2) ـــ د عيسى خليل محسن . أمراء الشعر الأندلسي . ص 55 .

(3) ـــ د محمد صبحي أبو حسين . صورة المرأة في الأدب الأندلسي (في عصر الطوائف و المرابطين). ط 2 . عمّان : عالم الكتب الحديث ، 2005 . ص 40 .

(4) ـــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 142 .

و شهد ميدان الزراعة تحولات جذرية و حساسة في مجال حقوق الزراع ؛ فمثلا " ذهب ما كان من اعتبار الزارع رقيق الأرض ، و أصبح هؤلاء الزراع أحرارا ، لهم حقـــوقهم ، يزرعـــون الأرض ملاكا لها " [1] .

و أنشئت المساجد في عديد المدن الأندلسية في عهد الإمارة ، لا سيما مسجد قرطبة الجامع، و عمرت المدن بما تم فيها من رصف الشوارع و إنارتها ، و بما قامت فيها من إنشاءات غير رسمية، و تجمّلت بالحدائق الغناء و جُلبت إليها الأزهار و النباتات المختلفة [2] .

و بذلت الجهود المضنية في تنمية الميدان الفلاحي ؛ إذ " جُلبت إلى الأندلس الغروس و البذور المتنوعة ، و تقدمت وسائل الري ، و أُجريت المياه بواسطة طرق فنية و بالقنوات و كذلك بالنسبة لمياه الشرب " [3] .

و تمتعت الأندلس خلال عهد الخلافة بالقوة و الرخاء و الاستقرار ، و زهت بعمرانها الخاص و العام . و غدت قرطبة دُرَّة في جبين الحضارة يومها ، فكانت تزهو بالشوارع المرصوفة التي تمتد أميالا كثيرة ، مضاءة بالمصابيح العامة ، تتمايل حدائقها مزهوة و يفوح شذاها طيبا . جُلبت إلى قرطبة المياه من المناطق المختلفة ، في أنابيب الرصاص المحفوظة داخل قنوات حجرية متقنة ، فكثر العمران و اتسع ، و نمت الزراعة و التجارة و الصناعة ، و وُصفت قرطبة بأنها جوهرة العالم [4] .

و نظرا لقوة الأندلس الاقتصادية الكبيرة ، فقد عاش الأندلسي حياة رفاه و ترف و رخاء . " و كان للثراء الفاحش الذي امتلأت به خزائن الدولة في فترة قوة الخلافة و فترة الحجابة أثر على الحياة الاجتماعية " [5] ، و الحياة إذا تمادت في مثل هذا الترف و الرخاء تصبح شديدة الالتـــصاق

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 141 .

(2) ــ المرجع نفسه . ص 285 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 286 .

(4) ــ المرجع نفسه . ص 314 .

(5) ــ د محمد سعيد محمد . دراسات في الأدب الأندلسي . ص 45 .

بالمادة و الحس و تبتعد عن موارد الروح ، و عن التطلع إلى المثل العليا . و مما لا شـــك فيـــه أن الروح الدينية ضعفت في الأندلس و لا سيما بعد أن أطلق ملوك الطوائـــف حريـــة الدراســـات العلمية، و بعد أن شاع التحرر الفلسفي . فكما شاعت عند الفلاسفة فكرة التوفيق بين الدين و الفلسفة ، شاعت عند طلاب الملاهي فكرة التوفيق بين الدين و الإباحية و المجون [1] .

و كان للغزوات أثر كبير على إذكاء روح التفسخ و المجون ؛ فقد أسهمت إسهاما وافرا في ارتفاع عدد الجواري و الغلمان بالأندلس ، فازدحمت بهم الدور و القصور و أندية اللهو [2] .

و ازدهرت الزراعة و نمت في عصر الطوائف ؛ و يرجع ازدهارها إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق و البساتين اليانعة ، و تربية الغراس و الزهور النادرة . و قد ظهر في عصر الطوائف عدة من علماء النبات و الزراعة ، و لا سيما في طليطلة و إشبيلية [3] .

و تقدمت الصناعات الحربية و المدنية في عهد الموحدين و لا سيما صناعة الأقمشة الممتازة ، و الصناعات الجلدية ، و صناعة الورق و غيرها . و ازدهرت التجارة و عم الرخاء ، و كانـــت ثغور الأندلس مثل بلنسية و دانية و إشبيلية و ألمرية و مالقة من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر . و ازدهرت الزراعة بنوع خاص ، و ارتقت أساليبها الفنية ، و تنوعت المحاصـــيل و انتشرت زراعة الفاكهة ، في أحواز بلنسية و إشبيلية [4] .

و اهتزّت دولة الموحدين في أواخر عهدها بتفاقم الأزمة الاقتصادية بالمغرب و الأندلس ، و اشتدت الحال ، و تناهى الغلاء ، و اختلت أحوال الخلافة الموحدية ، و قطعت السابلة ، و وقـــع

---

(1) ــ ديوان ابن زيدون . تحقيق و تبويب : حنّا الفاخوري . بيروت : دار الجيل . ص 10 ــ 11 .

(2) ــ د عبد القادر هنّي . مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة . ط 1 . الجزائر : دار الأمل . ص18 .

(3) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف). ط 4 . القاهرة : مكتبة الخـــانجي ، 1997 . ص 441 ــ 442 .

(4) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 439 .

النهب على التجار . و شاع في هذه الفترة جو من الفوضى و ضياع القيم و المثل [1] .

و كانت ثغور مملكة غرناطة من أغنى الثغور الإسبانية ، و أحفلها بالحركة التجارية . كما كانت جبالها الوعرة التي تخترقها من كل صوب تزخر بالكثير من الثروات المعدنية . و إلى جانب ذلك توجد وديانُها الخصبة النضرة التي تغص بالبسائط الخضراء و الجنات الفيحاء ، و التي تجود بها الحبوب و الكروم و الزيتون و الفواكه و غيرها [2] .

لقد كان المجتمع الأندلسي مزيجا من أجناس مختلفة في أصولها و عقائدها ، و رغم ذلك أبى إلا أن يكون كتلة واحدة ، تأكل من رغيف واحد تحت ظل الإسلام و اللغة العربية . و يعود ذلك إلى مبادئ الأمة الإسلامية السمحاء ، و حكمة رجالها الأوفياء للدين و التاريخ .

3 ــ الحياة الثقافية :

قراءة بسيطة للواقع السياسي و الاجتماعي الأندلسي تكشف بوضوح قابلية هذا المجتمع للبناء و التشييد ، و بالتالي قدرته على التكوين و الإبداع . و لا شك في أن المجتمع الذي استطاع أن يعمر الأرض ثمانية قرون قد ترك تاريخا حافلا بالإنجازات و الإبداعات على جميع الأصعدة .

و تتحدث كتب التاريخ عمّا وصل إليه المجتمع الأندلسي من قمة الحضارة و التمدن ، و عن مدى حبه للعلم و الثقافة و الفكر . و يمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية إلى عصر عبد الرحمن الداخل ؛ ذلك أن هذا الأمير القوي اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت في ميدان التفكير و الأدب و الشعر ، و يمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية و الشعرية ، التي تفتحت فيما بعد ، و ازدهرت في عهد خلفائه .

و من بين أمراء بني أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل في الحديث و الفقه ؛ فقد كان الداخل ــ فوق براعته الأدبية ــ عالما بالشريعة ، و كان ولده هشام بن عبد الرحمن مبرزا في

---

(1) ــ أ د محمد مجيد السعيد . الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس. ط 3 . عمّان : دار الراية ، 2008 . ص 53 .

(2) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 440 .

الحديث و الفقه . و في عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى في ميدان التفكير و الأدب ، و كان يغلب على هذه النهضة في البداية الطابع الديني قبل كل شيء . و كان قد رحل في عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، و درسوا بالمدينة على الإمام مالك و غيره من أقطاب المشرق [1] .

كما امتدت أذرع هذه النهضة في هذا العهد ــ و ما تلاه ــ إلى الإنتاج في مختلف النواحي العلمية . و نمت العلوم و ازدهر الميدان الثقافي و كثر الإنتاج فيه واتسع نطاق التعليم ، و زاد الاهتمام بالكتب و المكتبات في أنحاء الأندلس كافة ، وشملت كلا الجنسين ، و غدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي [2] .

و كان عصر عبد الرحمن الناصر ــ بالرغم مما شغله من فتن و حروب مستمرة ــ عصر عظمة و رخاء و مجد ، بل كان ــ في الواقع ــ أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، و لا سيما من نواحيه المعنوية و الحضارية ، حيث بلغت فيه الدولة الأموية ذروة القوة و البهاء [3] ؛ حيث نشطت الحركة العمرانية و العلمية في قرطبة نشاطا كبيرا ، حتى أصبحت تضاهي العواصم العربية الأخرى ، بغداد ، و القاهرة ، و دمشق و غيرها ، و أصبحت تستقطب الآلاف من البشر ، و تزدحم بآلاف المنازل و القصور ، وعشرات الفنادق و الحمامات و المتاجر ، و تخترقها الشوارع بالأسواق المرصوفة ، و أضحت صورُها تجتذب أجواءَ الشعر و الغناء [4] .

و كانت قرطبة ــ إلى جانب ذلك ــ قلعة علمية عظيمة شامخة تغص مكتباتها بآلاف المخطوطات النفيسة الأصلية و المترجمة ، و تعج أروقة مساجدها و قصورها بنخبة كبيرة من العلماء و الشعراء و المثقفين ، يستهويهم المناخ الفكري الفريد في المدينة ، و العقلية المستنيرة و

---

(1) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 691 .

(2) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 279 .

(3) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 435 .

(4) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . ص 158.

المتطورة [1] .

و ظهرت جمهرة من أكابر الشعراء و العلماء . و كان من أعلام تلك الفترة ــ إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) ــ محمد بن عمر بن لُبانة ، و هو من أهل قرطبة . و كان إماما في الفقه ، حافظا لأخبار الأندلس ، و له حظ من النحو و الشعر . و من مؤلفاته كتاب (المنتخب في روايات مذهب مالك) [2] .

و أصبحت قرطبة منتجعا لطلاب العلم و المعرفة من كل مكان . قصَدها عدد من علماء الشرق الإسلامي كأبي علي القالي صاحب كتاب (الأمالي) ، الذي ترك بغداد إلى الأندلس أيام الخليفة الناصر [3] .

و استمرت هذه النهضة الفكرية و الحضارية في عهد ولده الحكم المستنصر ــ الذي عُرف بصفات كثيرة ، يبرز منها حبه للعلم [4] ــ و ازدادت قوة و ازدهارا . و كان الحكم ــ و هو الخليفة الأديب العالم ــ رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . و كان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، و احتشاد أكابر الأساتذة بين عقودها ، و إنشاء المكتبة الأموية الكبرى التي بلغت محتوياتها زهاء أربعمائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم و الفنون [5] .

و إن كان ابن أبي عامر المنصور قد أرضخ للجند في العطاء ، و أعلى مراتب العلماء ، و كان ذا عقل و رأي و شجاعة و بصر بالحروب و دين متين [6] ، فإنه " لم يبد تسامحا إزاء الفلسفة و الفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . و قد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 163 .

(2) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 696 .

(3) ــ د عبد الرحمن علي الحجي . التاريخ الأندلسي (من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة) . ص 303 .

(4) ــ د علي حسين الشطشاط . تاريخ الإسلام في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة) . ص 180.

(5) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 701 .

(6) ــ المقري التلمساني . نفح الطيب . مج 1 . تحقيق : د إحسان عباس . ص 396 .

تمثل نفس التيار الذي يندفع فيه كل حاكم مطلق . . . . و قد استمر هذا التيار الرجعي فيما بعد في عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، و فيما تلا بعد ذلك من عهود " [1] .

و انقضى عهد الدولة العامرية ، و انهارت الخلافة الأموية ، و أقبل عصر الفتنة بأعاصيره المتوالية ، فانكمشت الحركة الفكرية و سارت بخطى قلقة متوترة ، و شغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن و الصراعات ، و تعاقب الرياسات ، و مع ذلك ففي غضون الفتنة نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر و ينظمه [2] ؛ فكان الخليفة العالي ــ خليفة مالقة في ظل الخلافة الحمودية البربرية ــ أديبا ينظم الشعر ، و كان من شعراء دولته الشاعر الكبير عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني ، و كان أديبا بارعا ، و شاعرا متقنا [3] .

و ندخل عصر الطوائف من إحدى البوابات المثيرة للجدل ؛ إذ كان ملوك الطوائف ــــ بالرغم من طغيانهم المطبق ، و من الصفات المثيرة التي كان يتصف بها الكثير منهم ــ من حماة العلوم و الآداب، و من أكابر الأدباء و الشعراء و العلماء ، و كانت قصورهم منتديات زاهرة ، و مجامع حقة للعلوم و الآداب و الفنون ، و أن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء و الكتاب و الشعراء الممتازين ، و منهم بعض قادة الفكر الأندلسي ، و الفكر الإسلامي بصفة عامة [4] .

و يمتاز عصر ملوك الطوائف كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . و قد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين و الفلكيين ، الذين كانت بحوثهم ــ فيما بعد ــــ مستقى خصبا لاقتباس الغرب . و كان من هؤلاء أبو إسحق بن أهيم بن يحيى الزرقالي القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة . و كان المقتدر بن هود و ولده المؤتمن من العلماء المبرزين في الفلسفة و الرياضيات و الفلك . و كانت سرقسطة ، و طليطلة ، و قرطبة ، من أعظم مراكز الدراسات

---

(1) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية و الدولة العامرية) . ص 704 .

(2) ــ المرجع نفسه . ص 705 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 705 .

(4) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) . ص 423 .

الفلسفية و الرياضية في القرن الحادي عشر الميلادي [1] . و أصبح الكثير من عواصم الأندلس محط أنظار العالم .

و أعلن الملوك احتضانهم للفنون و الصناعات ، فاعتنوا بها ، و جعلوا قصورهم مثوى للفنون الجميلة ، فكانت مظهرا حيّا لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف و ترف و أناقة ، و كانت ــ بالأخص ــ منتديات زاهرة للموسيقى و ما يتبعها من الغناء [2] .

و يكشف هذا كله عن روح علمية عالية الجودة سكنت نفوس الأندلسيين قرونا من الزمن فأبت أن تزول .

و لم تجد النهضة الفكرية و الأدبية التي ازدهرت في عصر الطوائف النفسَ المريح في صدور المرابطين ؛ " فقد كان أولئك المرابطون يتّسمون بالخشونة و البداوة " [3] ، و " يؤثرون مهاد الجندية " [4] ، " و يضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، و يمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب " [5] ، "و حتى العلوم الدينية كانت تدرس في ظلهم في إطار خاص يغلب فيه علم الفروع على الأصول ، و من ثم فقد طوردت في ظلهم ـــ فضلا عن الكتب الفلسفية و العلمية ــ كتب الأصول المشرقية، و في مقدمتها كتب الغزالي"[6] . "و مع ذلك فقد بزغت في عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف" [7] .

و في ظل دولة الموحدين انتعشت الحضارة الأندلسية و التفكير الأندلسي ، و كان لدولتهم

---

(1) ــ المرجع السابق . ص 435 ــ 436 .

(2) ــ المرجع نفسه . ص 441 .

(3) ــ المرجع نفسه . ص 437 .

(4) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 436 .

(5) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) . ص 437 .

(6) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 436 .

(7) ــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) . ص 437 .

ـــ بالأخص ـــ صبغة علمية دينية ، إذ كان مؤسسها المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني . و أُطلقت حرية التفكير و البحث ، و أُفرج عن كتب الغزالي و غيره من مفكري المـــشرق [1] . و مع ذلك نسجل بعض التجاوزات ؛ إذ كانت الفلسفة ـــ على الأغلب ـــ علما خطرا في ظـــل حكومة الموحدين ؛ و يظهر ذلك من خلال اضطهاد ابن رشد و نفيه بسبب آرائه الفلسفية [2] . و حتى في مرحلة الانحلال و الانهيار التي توالى فيها سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، نجد الحركـــة الفكرية الأندلسية مستمرة في الاحتفاظ بنشاطها و عنفوانها [3] .

و كان زعماء الدولة الموحدية من أقطاب علماء عصرهم ؛ فقد كان أول خلفاء المهدي ، و هو عبد المؤمن بن علي ـــ مؤسس الدولة الموحدية الحقيقي ، و موطد دعائمها ـــ عالما من ألمـــع علماء عصره . و كان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كذلك من أكابر العلماء في تلك الحقبة من الزمن ، و كان أديبا متمكنا ، و فقيها ، و محدثا بارعا [4] .

و في ميدان العلوم و الفنون تصل الحركة الفكرية الأندلسية إلى ذروة قوتها و ازدهارها ، و تسطع خلالها أسماء من أعظم شخصيات التفكير الأندلسي ، نذكر منها : ابن طفيل ، و ابن زهر، و ابن رشد ، و ابن الرومية ، و ابن البيطار [5] .

و في نهاية دولة المحدين شهدت الأندلس سلسلة من الأحداث الجسام ؛ منـــها أن أخـــذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعا في يد النصارى ، و استطاع ابن الأحمر في الوقت نفـــسه أن ينشئ مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس . و كان من جراء الفوضى السياسية التي غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة الأدبية ، و انتشر شملها ، و فقدت وسيلة الاستقرار و التجمـــع ، و

---

(1) ـــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 436 ـــ 437 .

(2) ـــ المرجع نفسه . ص 438 .

(3) ـــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحدين) . ط 4 . القاهرة : مكتبة الخـــانجي، 1997. ص 645 .

(4) ـــ المرجع نفسه . ص 646 .

(5) ـــ المرجع نفسه . ص 711 .

شغل الأدباء و المفكرون يومئذ بالمحنة و آثارها . و غادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب و العلماء الذين توقعوا سوء المصير ، فرحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب [1] . فما كان للحركة الفكرية أن تستمر في ظل هذه الأوضاع و هي التي لا تزدهر إلا في فترات الاستقرار .

و لما تجاوزت مملكة غرناطة هذه الفترة العصيبة و بدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظل هذه المملكة الفتية ، " أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار ، و آنست جوا من الهدوء و الطمأنينة . و كان ملوك غرناطة ـــ جريا على سنن ملوك الأندلس السالفين ـــ من حماة العلـــوم و الآداب ، و كان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، و كان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء و الأدباء ، و اشتهر عميدهم و مؤسس دولتـــهم محمد بن الأحمر بحمايته للعلم و الأدب " [2] .

و منذ أوائل القرن التاسع الهجري بدأت مملكة بني الأحمر تشم رائحة الانهيار و الاندثار ، و أخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات و الانقلابات الداخلية المتواليـــة ، و تواجـــه في الوقت نفسه طوالع الصراع الأخير بينها و بين إسبانيا النصرانية [3] .

و شغلت الأمة الأندلسية من جديد بأمور الفتن و الصراعات ، فكان أن تـــشتت الحركـــة الفكرية التي ما كان لها أن تستقر في مثل هذه الظروف ، " و لذا نجد في هذا العصر فراغا ملحوظا في ميادين التفكير و الأدب في الأندلس المحتضرة ، و لا نعثر إلا بقلة من المفكرين و الأدباء الذين ظهروا في تلك الفترة متفرقين متباعدين " [4] .

ثم كان انهيار صرح الأمة الأندلسية القومي و الاجتماعي ، و تبـــدّد تراثهـــا الفكـــري و

---

(1) ـــ محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس) . ص 452 ـــ 453 .

(2) ـــ المرجع نفسه . ص 460 .

(3) ـــ المرجع نفسه . ص 488 .

(4) ـــ المرجع نفسه . ص 488 .

الأدبي[1] . فكانت هذه مأساةَ الثقافة العربية الإسلامية ، و سوءَ حظ الحضارة الأندلسية الطويلة.

لقد أثبت الأمة الأندلسية ـــ رغم ما أصابها من نكبات على مدى قرون من الزمن ـــ قدرتها على الحفاظ على هويتها الدينية و اللغوية و الثقافية ، و فرض نفسها بين كل الأجناس ، و إثبات قوتها السياسية و العسكرية في أوقات الجهاد و الكفاح . و ربما كان ما أصابها دافعا قويا لها للالتصاق أكثر بهويتها العربية الإسلامية في كثير من الأحيان .

(1) ـــ المرجع السابق . ص 493 .